البعد الحجاجي للإحالة الضميرية

سورة الأعراف - نموذجا

لعرباوي نورية

The Persuade dimension of The referral Pronoun Surah Al - A'raf – A Model

LARBAOUI Nouria

جامعة وهران 1 أحمد بن بلة/الجزائر

إشراف: أ.د. مفلاح بن عبد الله

djidel5117@gmail.com

ملخص البحث::

القرآن الكريم كتاب دعوة، أنزله الله تعالى دستورا للإنسان، لينظم حياته وتعاملاته مع غيره، ويُعدُّ خطابا حجاجيا مُوجّهً في أساسه لإصلاح اعتقادات البشر وسلوكاتهم، وربطهم بخالقهم حتّى يُذعنوا لإرادته ويُسلّموا لأمره.

يطرح القرآن الكريم من خلال سورة الأعراف قضية أساسية تتمثل في قضية التوحيد، إذ قدّم الله سبحانه وتعالى الحجج المدعمة ضد ما يعتقده المشركون والملحدون، ولعل في اختلاف مستويات التلقي هذه ما يؤكد الصفة الحجاجية للقرآن وهو بهذا منظومة حجاجيه لا يمكن لمتلقّي الخطاب التفاعل معه إلاّ بحمل بعضه على بعض، وملاحظة الترابط النّصي داخله، وهو منظور ترتيبي في تشكيل الخطاب وربط حججه، ومن أجلّ إجراءاته صورةً الإحالة.

الكلمات المفتاحية: الحجاج، الإقناع، المتلقي، الخطاب، الإحالة، الضمائر، القرآن، الأعراف .

Abstract:

The holy Quran is a book of guidance for mankind, and it is considered as an argumentative discourse addressed to correct beliefs and behaviors of people and to bring them related to their creator acquiescing in its will and submitting to his order.

The holy Quran exposes trouth the surah of Al-A'raf a basical case which is "the principle of monotheism", so Allah gives arguments against what polytheists and atheists believe in, and the difference of reception levels asserts the argumentative quality of Quran that the receptor can't react with only by attributing some of its parts to others, and realizing textual connection between them. This is an organized perspective in the creation of the discourse and the correlation of its arguments. The reference is one of the most significant procedures of the quranic discourse.

Keywords: Argumentative, Discourse, reference, quran, Al-A'raf, arguments.

مهاد نظري:

يُعدّ الاتساق بين الوحدات المشكّلة لنص ما وما ينتج من انسجام بينها محورا مركزيا في لسانيات النص التي تتعامل مع النص على أنّه وحدة كلية، لذلك كان المدخل لدراسة الاتساق والانسجام النصي بحث في الوسائل والأدوات التي تؤدّي إلى تماسكه وتعطي تفصيلا لمكوناته التنظيمية بالتركيز في المستوى الأول على ملاحظة التلاحم بين أجزاء النص ورصد روابطه الداخلية كالعطف والحذف والاستبدال والإحالة وغيرها[1] وهو المظهر الأول لهذا الترابط واصطلح عليه علماء النص بالاتساق، ومن جهة أخرى يتطلّب هذا الاتساق من المتلقي توجيه الذهن إلى الكشف عن العلاقات الخفية التي تربط النص بعضه ببعض مولّدة بنية كلية ومجموعة العلاقات الكامنة التي تُبرز النص بوصفه بنية كلية تتظهر بالانسجام [2].

تعدّ الإحالة *Référence* من أهم وسائل الاتّساق النصي، حيث أنّها تحيل إلى العلاقات المعنوية القائمة داخل النص، فتجعل أجزاءه متماسكة مشكّلة بذلك كلاّ موحدا، وتمثّل هذه العلاقات الدلالية سمة مميزة للنص باعتباره وحدة دلالية، فقد عرّفها دي بوجراند "بأنها العلاقة بين العبارات من جهة وبين الأشياء والمواقف في العالم الخارجي الذي تُشير إليه العبارات"[3]-داخل النص أو خارجه-يدلّ عليها السياق أو المقام عن طريق ألفاظ أو أدوات محدّة (كالضمير واسم الإشارة واسم الموصول) وتشير إلى مواقف سابقة ولاحقة في النص.

فالإحالة إذن لا تخضع لقيود نحوية، إلاّ أنّها تخضع لقيد دلالي ؛ وهو وجوب تطابق الخصائص الدلالية بين العنصر المحيل والعنصر المحال إليه.[4]

ويمكن أن تكون الإحالة بشكل عام نصيّة أو مقامية، فإذا كانت نصية فإنّها يمكن أن تحيل إلى السابق أو اللاحق، فالإحالة على السابق أو الإحالة بالعودة أو الإحالة القبلية تعود على مفسّر سبق التلفظ به، والإحالة على اللاحق وتسمّى بعدية تعود على عنصر إشاري مذكور بعدها في النص ولاحق عليها.[5]

ومن الأدوات التي نعتمد عليها لتحديد المحال إليه داخل النص أو خارجه الضمائر، وقد سمّاها هاليداي أدوات لأنّنا لا نعتمد في فهمنا لها على معناها الخاص، بل على إسنادها لشيء آخر[6] واصطلح عليها دي بوجراند ب"الألفاظ الكنائية" أمّا الأزهر الزناد فسمّاها العناصر الإحالية وعدّها من قبيل المعوضات إذ أشار إلى أنّها تأتي تعويضا عن وحدات معجمية يمكن أن نطلق عليها

مصطلح العنصر الإشاري.[7]وقد أشار محمد خطابي إلى أنّها عناصر تملك خاصية الإحالة ومنها : الضمائر أسماء الإشارة والأسماء الموصولة

وتقوم الضمائر(الذات والشأن والفصل) بدور بارز في إحكام بنية النص القرآني وتماسكه وتعدّ البنية الإحالية للضمائر الوسيلة الأكثر قوة في صنع التماسك الدلالي للنص القرآني وتجسيد وحدته العامة، بل إنّها تُعدّ الوسيلة الأكثر قدرة على تحقيق التآلف ليس على مستوى الآيات فحسب، بل على امتداد النص بأكمله، ذلك أنّها تقرن بين الربط اللغوي والربط الدلالي.

سنسعى من خلال هذه الورقة البحثية إلى بيان دور الإحالة في ترابط واتساق النص القرآني من جهة والإشارة إلى أبعادها الحجاجية من جهة أخرى، معتمدين في ذلك على شواهد من سورة الأعراف مستهلين البحث بطرح الإشكال الآتي:

فيما تمثّل البعد الحجاجي للإحالة الضميرية في سورة الأعراف؟

سوف نعمد في هذا البحث على رصد الضمائر بأنواعها في سورة الأعراف ومنها الضمائر الشخصية، وذلك بالاستعانة بالجداول الإحصائية كلّما تطلّب الأمر ذلك، إذ من الواجب أن تحمل تلك الإحصائيات دلالات تسهم في بناء الدلالة الكلية للسورة، لكن قبل ذلك يجدر بنا أن نقف في مقام أول على مفهوم الحجاج اللغوي والاصطلاحي ليتسنّى لنا فيما بعد استنتاج الخاصية الحجاجية للإحالة.

1-مفهوم الحجاج:

تسعفنا العودة للأصل المعجمي لمصطلح الحجاج في بناء تصوّر أوّلي لهذا النشاط الإنساني حيث استخدمت فيه اللغة كوسيلة من وسائل التواصل والتأثير بين الجماعات البشرية المختلفة، إذ ورد في لسان العرب وتحت مادة (حجج) دلالات لغوية متنوعة ومترابطة تدل على استعمالات متنوعة لهذا الجذر ضمن سياقات مقامية متعددة، نذكر منها مايلي:

- دلالة القصد" : الحج : القصد، حججت فلانا واعتمدته أي قصدته."
- دلالة التّخاصم والتنازع " : والتّحاج : التخاصم، وحاجّه محاجّة وحجاجاً :نازعه الحجّة."
- دلالة البرهان والدليل " :الحجة الدليل والبرهان، واحتج بالشيء : اتخذه حجةً."
- دلالة الغلبة والظفر : وحجه يحجه حجا: غلبه على حجته[8] "

نستنتج من هذه التحديدات القاموسية أن لفظ الحجاج متعلّق بمعنى التفاعل بين الذوات المتخاطبة ومحاولة كل طرف إقناع الأخر برأيه مدعّما خطابه بأدلة وبراهين من شأنها حمل المتلقي على تبنّي موقف ما.

أمّا مفهوم الحجاج عند بعض الدارسين المحدثين فقد عرّفه طه عبد الرحمن قائلا "الحجاج كل منطوق بهم وجّه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة يحقّ له الاعتراض عليها[9]"

أمّا في الدرس اللساني الغربي فإنّنا نجد مفاهيم متنوعة نذكر منها:

عرّف شايم بيرلمان(*Ch. Perlman*)الحجاج بقوله:" جعل العقول تذعن وتسلّم لما يُطرح عليها من الأقوال، أو يزيد في درجة ذلك الإذعان وذلك التسليم، فأنجع الحجاج ما وُفّق في جعل حدّة الإذعان تقوى لدى السامعين بشكل يبعثهم على العمل المطلوب."[10]نلاحظ أنّ بيرلمان في هذا التعريف يقرن الحجاج بالإقناع الذي يُعدّ غاية العملية الحجاجية وذلك من خلال الأثر الذي يتركه تلفّظ المتكلّم في المتلقي فيدفعه إلى الإقدام أو الإحجام، ولهذا يراد بالحجاج " ذلك الخطاب الصريح أو الضمني الذي يستهدف الإقناع أو الإفحام أيا كان متلقي هذا الخطاب ومهما كانت الطريقة المتبعة في ذلك"[11] وباعتباره أيضا تصنيفات من التقنيات الحجاجية بوصفها وسائط لفظية مؤثرة حاملة على اعتقاد وجهة نظر أو تعديلها أو توجيه الآخرين إلى تأمّلها"[12]

واعتبر بيرلمان الربط بالإحالة من الموجهات التعبيرية التي تعمل على توجيه المتلقي إلى المعنى المقصود[13]باعتبارها من أهمّ الأدوات اللسانية التي تُحقّق ترابطا بين بنيات الحجاج، وتتمثل وظيفتها في الإشارة إلى داخل النص أو خارجه، ممّا يجعلها وسيلة تأثير في المتلقي بربط ذهنه وتركيزه بمضمون ما يتلقّاه من بداية الحجاج إلى منتهاه، وقدرته على تفكيك ما يوُجّه إليه، وتحديد تلك الأدوات المستعملة لإعادة ربط هذه الأجزاء والنظر في دلالاتها وفقا لمقصود المحاجج.

وهكذا يغدو الحجاج استراتيجية خطابية يسخرّها المرسل لإقناع مخاطبه بفحوى أطروحة ما في مقام أول، ثم توجيهه إلى العمل في درجة ثانية بتوظيف آليات لغوية نذكر منها الإحالة.

والقرآن الكريم خطاب كوني موجّه للبشرية جمعاء، موجّه في أساسه لإصلاح اعتقادات البشر وسلوكياتهم حتى يذعنوا لإرادته ويسلّموا لأمره، وقد ساق المولى -عزّ وجل-لأجل ذلك جملة من الأدلة والبراهين الدّالة على وحدانيته من خلال سورة الأعراف.

2-السياق النّصي لسورة الأعراف:

نقول بداية أنّ من أهم عناصر التحليل النصي معرفة الفكرة الرئيسية أو الموضوع الرئيسي الذي يدور حوله النص وموضوع سورة الأعراف هو العقيدة (...) ، وهي تعالج موضوع العقيدة "تعرضه في مجال التاريخ البشري، وفي مجال رحلة البشرية كلها مبتدئة بالجنة والملأ الأعلى، وعائدة إلى النقطة التي انطلقت منها....، وفي هذا المدى المتطاول تعرض موكب الإيمان من لدن آدم عليه السلام إلى سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم -تعرض هذا الموكب الكريم يحمل هذه العقيدة ويمضي بها على مدار التاريخ، يواجه بها البشرية جيلا بعد جيل ..ويرسم سياق السورة في تتابعه كيف استقبلت البشرية هذا الموكب وما معه من الهدى، وكيف وقف الملأ منها لهذا الموكب بالمرصاد، وكيف تحمّل ذلك الموكب أرصادها ومضى في طريقه إلى الله، وكيف كانت عاقبة المؤمنين وعاقبة المكذبين في الدنيا وفي الآخرة."[14]

هذه الأسئلة تجيب عنها السورة من خلال عرض رحلة العقيدة عبر التاريخ البشري الذي مرّت على ذكره السورة من خلال القصص الذي انتظمته، والتي شكّلت بنيات حجاجيه- منها كتاب الله المفتوح "الكون"، والعلم بالغيب المتمثل في الإخبار عن الأمم السابقة ومستقبل الأمم الحالية في الدنيا والآخرة، والإخبار بمشاهد يوم القيامة، ومصير الخير والشر، وعن طريق إرسال الرسل وغيرها من القضايا التي لا يملك التصرّف فيها إلا الله العلي القدير.

إذا كان هذا باختصار موضوع السورة، فكيف أسهمت الضمائر في إجلاء هذه الدلالات وتحقيق أهداف الخطاب الحجاجية؟

3-مستويات الإحالة في سورة الأعراف:

من الطبيعي بعد عرض هذه الأمور المتعلقة بموضوع السورة أن نجد للضمائر دورا بارزا في تحقيق الترابط بين الأجزاء التي تمّ من خلالها مناقشة هذه القضايا كلها وربطها بخالقها ومسيّرها، فالسورة عبارة عن نص منزله الله تعالى ومتلقيه الأول النبي – صلى الله عليه وسلم -لينذر به الكافرين ويبشر المؤمنين، وليصحّح في النهاية قضية العقيدة وإرجاع الأمر كله لله، ذلك من خلال هذه السورة التي ابتدأت بقوله تعالى :**المص ﴿١﴾ كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيكَ فَلا يَكُن فِي صَدرِكَ حَرَجٌ مِنهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكرَى لِلمُؤمِنِينَ ﴿٢﴾ اتَّبِعوا ما أُنزِلَ إِلَيكُم مِن رَبِّكُم وَلا تَتَّبِعوا مِن دونِهِ أَولِياءَ قَلِيلًا مَاتَذَكَّرونَ ﴿٣﴾**[15]

ومن ثمّ فقد توزّعت أغلب الضمائر على هذه المستويات الأربع:

الأول :الله تعالى الثاني :الرسول صلى الله عليه وسلم

الثالث: المشركين الرابع :المؤمنين

أ-الإحالة إلى الله سبحانه وتعالى-:

وبالرجوع إلى السورة نلاحظ أن الضمائر التي تحيل إلى الله تبارك وتعالى، وبما فيها أيضا أسماء الإشارة والأسماء الموصولة قد توزعت كالآتي:

الضمائر الشخصية	218
أسماء الإشارة	لا يوجد
الأسماء الموصولة	05مرات

هذه الإحالات كلها والتي يصل مجموعها إلى (223) إحالة، تعود كلها إلى الله تبارك وتعالى مع العلم أن عدد آيات السورة 206 أية، فما دلالة هذا الحضور الكثيف لهذه الإحالة إلى الله عز وجل داخل السورة؟

تتضمن السورة عدة أمور مسندة إلى الأطراف الأربعة المشار إليها أعلاه، وفيما يخصّ قضية الألوهية والعبودية فإنّ الضمائر فيها تعود إلى الأساس الأول في النص وهو الله تعالى، ومن خلال ذلك تتطور فكرة النص من بدايته إلى نهايته، ومقدمة السورة تحمل نواة النص أو مفتاح النص الذي تتصل به الأطراف كلها وتتماسك معه، والمتمثل في الدعوة إلى إتباع هدى الله المنزل والثبات عليه وما يترتّب عليه من نعيم أو شقاء في الدنيا والآخرة.

وكون سورة الأعراف أجزاء أو قصص أنبياء، فقد اشتملت على مقدمة في الآيات التسع الأولى، تلتها قصة التمكين والخلق لأصل النوع الإنساني المتمثل في آدم عليه السلام وزوجه، وغواية إبليس لهما، ثمّ تلاها-سبحانه- بعد ذلك بتعقيب يشمل جملة من التوجيهات لبني آدم-عليه السلام- المبنية على قصة أبويهما، ثم جاءت المجموعة الثانية وفيها عرض مشاهد الآخرة ابتداءً من مشهد الاحتضار.

والمتأمل في هذا القسم من سورة الأعراف يجد أن تتألّف من مقدمة ثم قصة آدم وبناء عليها أو تعقيب، ثم قصص الأنبياء الآتية أسماءهم مع أقوامهم: نوح وعاد وثمود، وقوم لوط وشعيب، ثم

بناء عليها ثم قصة فرعون مع موسى ثم قصته مع بني إسرائيل بعد الخروج من مصر ومواجهته معهم بعد شركهم، ومن تأمّل هذه المعاني نجد أنّها نماذج من الهدى الذي أنزله الله خلال العصور السابقة على أمم، وموقف تلك الأمم من هذا الهدى، وما عوقبت به، وكل ذلك كان بمثابة درس لهذه الأمة.[16] حتى تذعن لإرادة خالقها.

ولاشك أنّ للإحالة دورا كبيرا في اتساق السورة بأكملها أو اتساق القصص منفردة .والسؤال كيف ساهمت الإحالة في تماسك واتساق كل سورة، وفي ترابط القصص كلها لتؤدي غاية واحدة؟

وسنحاول فيما يلي بيان حركة الضمائر التي تعود إلى لله تعالى، ويكون البدء بمقدمة هذه السورة، والتي تمتد من أول أية إلى الآية التاسعة، فكان الافتتاح بالتنويه بالقرآن الكريم والوعد بتيسيره على الرسول صلى الله عليه وسلم والنهي عن اتخاذ الشركاء من دون الله وإنذار المشركين من سوء عاقبة شركهم في الدنيا والآخرة، ووصف ما حلّ بمن قبلهم ممّن أشركوا من سوء العذاب في الدنيا وما سيحلّ بهم في الآخرة.

وبما أنّ البداية كانت بالأمر باتباع هدى الله المنزل، فلقد كان هناك ما يحيل إلى الله تعالى : أنزل، ربكم، أهلكناها، بأسنا، فلنسألنّ.

وقد ذكر لفظ الجلالة في بداية السورة صراحة" ربّكم "وذلك في الآية الثالثة، وذُكِرت بعدها الضمائر متأخرةً عن المُحال إليه، ولهذا كانت الإحالة نصية قبلية.

وملاحظة توزيع الضمائر التي تحيل إلى الله تعالى نجدها موزّعة في السورة كلّها، ولنلاحظ الكلمات التي تحمل ضمائر تعود إلى الله : مكّناكم، جعلنا، خلقناكم، صوّرناكم، قلنا، لأملأن، أنزلنا...فكلّها تعود إلى الله تعالى الوارد ذكره في الآية الثالثة، ومن تمّ فهي إحالة قبلية تعود إلى نواة النص.

وكونها تعود إلى محال إليه واحد فهي مرتبطة به شكلا ودلالة، وكذا ترتبط الآيات اللاحقة بالآية الأولى محقّقة الترابط النّصي بنوعيه الشكلي في اتّفاق الضمائر، والدلالي في الإسناد والتماسك المعنوي بين الآيات.

ولنتأمل مرة أخرى الضمير" هو "على مستوى السورة، وإحالته إلى الله تعالى، وما دلالة الآيات التي تتضمن هذا الضمير؟

" وَهُوَ الَّذِي يُرسِلُ الرِّياحَ بُشرًا بَينَ يَدَي رَحمَتِه حَتّى إِذا أَقَلَّت سَحابًا ثِقالًا سُقناهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنزَلنا بِهِ الماءَ فَأَخرَجنا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَراتِ كَذلِكَ نُخرِجُ المَوتى لَعَلَّكُم تَذَكَّرونَ ﴿57﴾، إذ تعود هذه الآية إلى قوله تعالى"إنّ رحمة الله قريب من المحسنين"[17]

ولنتأمّل أيضا ما للواو من عطف وتعداد للصفات الإلهية الجلية، وتقرير أفعال الربوبية، ثمّ إنّ الواو عطفت كذلك الآية : "وهو الذي يرسل الرياح " على قوله " :إنّ ربّكم الله" ونرى ما لهذا العطف من عرضٍ لمظاهر القدرة الإلهية الرحيمة؛ إذ أنّه لمّا كان خلق السموات والأرض وتعاقب الليل والنهار بينهما، والذي في تعاقبهما حياة للأحياء، وإفناء لأعمار الأموات، ولمّا كانت الشمس والقمر والنجوم مسخّرات بأمره، وما في تسيير هذه الكواكب بأمره وإرادته من إمطار وإنبات وإثمار، ممّا يكون سببا في حياة الأحياء، كانت الأمطار التي هي من رحمته آيتي الخلق والأمر، تتنزّل بأمره وبها تكون حياة الخلق [18]. وفي هذا السياق تأكيد ضمني على أنّ في وجود هذه المظاهر الكونية دليل على موجدها الذي أُحيل إليه بالضمير المنفصل "هو"

وقوله تعالى أيضا " :هو الذي خلقكم من نفس واحدة " ارتبطت بقوله تعالى في مقدمة السورة " : ولقد خلقناكم ثمّ صورناكم"، إذ قرّرت الآية وحدانيته تعالى في خلقه للإنسان كان التعبير بضمير الشأن " هو "من التشويق و التقرير لهذه الآية العظيمة الدالة على قدرته تعالى، وذكر في الثانية نعمة الخلق لبني آدم وتصوير قوالبهم وصورهم، فقد اجتمعت الآيتان في ذكر نعمة الخلق، لكن الأولى في سياق تقرير وحدانية القدرة الإلهية على الخلق، والثانية في سياق الامتنان الإلهي على بني آدم بهذه النعمة.

أما الإحالة إلى الله تعالى عن طريق الضمائر المنفصلة فقد توزعتها الآيات التالية:

﴿وَسِعَ رَبُّنا كُلَّ شَيءٍ عِلمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلنا رَبَّنَا افتَح بَينَنا وَبَينَ قَومِنا بِالحَقِّ وَأَنتَ خَيرُ الفاتِحينَ﴿89﴾

في هذه الآيات إشارة إلى نعم الله، وتمكين البشر في الأرض بالقرار فيها والاقتدار عليها، ورأى الطاهر بن عاشور أنّها على سبيل الكناية، [19]حيث يلزم من تسخير خيراتها التمكن منها، ويلاحظ كاف الخطاب في قوله تعالى):مكّناكم (و)جعلنا لكم (ما لها من قيمة بلاغية بخصوصية الإنعام وتولي الإكرام بذاته تعالى ولورود أدوات التوكيد) ولقد (والإسمية زيادة في الدلالة على هذا المعنى.

وفي تذييل الآية بقوله : " قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ " ما يربطها بالآية قبلها: " وكمن قرية أهلكناها " التي لم تشكر ما أُوتيت من نعم، وتحذرهم الآية من مصيرهم السابق، في سياق الترغيب. ثم بعد هذا الربط بين آية ذكر النعم- التمكين في الأرض- بآية الإهلاك ليحذروه، ذكرهم بنعمة الإيجاد مرة أخرى، وما فيها من عجائب الآيات و الإفضالات، وهو قوله : " وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ "، يقول البقاعي: "وهو راجع للذين خوطبوا ب " اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم "، وما بينهما أورد مورد الاعتبار و الاتعاظ بذكر ما آل إليه أمرهم في الدنيا، وما يؤول إليه في الآخرة[20]، ويلاحظ أن تذييلها بقوله : " قليلاً ما تشكرون " تمهيد لذكر قصة إبليس اللعين، الذي قصد إلى إغوائهم وعمد إلى ألا يكونوا من الشاكرين كما قاله بعد " ولا تجد أكثرهم شاكرين ".

وجاء ذكره في السورة لأنه كان سبباً لخروج آدم وحواء عليهما السلام من الجنة وقبلها عداوته الأولى له برفضه أمر ربه بالسجود له، وليعلم الخلق كيده ومكره بهم، فذكر قصته للاعتبار والاتعاظ، ولأنها تذكير لهم بما كانوا فيه قبل هذه النعم وهذه المكنة من العدم، وتحذيرهم من زوالها عنهم.[21]

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالأَرضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ استَوَى عَلَى العَرشِ يُغشِي اللَّيلَ النَّهارَ يَطلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمسَ وَالقَمَرَ وَالنُّجومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمرِهِ أَلا لَهُ الخَلقُ وَالأَمرُ تَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ العالَمِينَ ﴿54﴾

في هذه الآية عرض لقدرة الله وعظمته في ملكه، وفيها إقبال من الحق سبحانه بقوله : " إن ربكم " على عباده، يذكّرهم بربوبيّته، وتربيته لهم بخلقه هذا الكون الفسيح ليدلّهم عليه به. وفيه إشارة إلى أن الله هو الرب الحق، وأن الرب الحق هو الله المستحق للعبادة وحده، لأنه الخالق الرّازق النافع الضار وحده، ولذا تزايدت أدوات التوكيد في الآية ؛ إنّ، وتعريف الطرفين، والجملة الاسمية.

والترابط الدلالي الذي حققته الضمائر المنفصلة: "هو، أنت" والضمائر المستترة تبرز في كون الآيات التي بها هذه الضمائر تتحدّث عن الأمور التي تشرح هيمنة الله تعالى على الكون بأسره وعلى الدنيا والآخرة، وتُثبت أن كل شيء بيده تبارك وتعالى، وأنّه قد أحاط بكل شيء علما، وأنه خلق كل شيء وعنده مفاتح الغيب ... إلى غيرها من الأمور التي أكدتها الآيات، و تساهم في النهاية في تأكيد القضية الأساسية التي تدور حولها السورة وهي قضية العقيدة الألوهية والعبودية، الأمر الذي يستوجب الإذعان لإرادته، والتسليم لأوامره ونواهيه، وهذا هو الترابط الدلالي الذي

أحدثته الضمائر بالإحالة إلى مسند إليه واحد هو الله تعالى: فالإسناد في تلك الآيات هو العلاقة التماسكية الكبرى التي أسهمت في ترابط النص.

وسياق السورة خاصة والسور المكية عامة، يؤكد أو يُقوّي هذه المرجعية؛ فتقرير الألوهية والعبودية وأمور العقيدة وما يتصّل بها من أمور سردتها السورة، هذا كله يجعل من الطبيعي تضافر هذه الضمائر كلها في الإحالة إلى الله تعالى، فلا يمكن بأي حال من الأحوال تصوّر هذه الآيات كلها بجانب بعضها دون رابط دلالي وشكلي يجمعها ويضمّها في عقد واحد[22].

ب-الإحالة إلى النّبي- صلّى الله عليه وسلّم-:

ولما كان المتلقي الأول لهذا الخطاب هو النبي صلى الله عليه وسلم ليزداد اقتناعا به ولينذر الكافرين ويبشرّ المؤمنين، فقد وُجِدت ضمائر تحيل إليه -عليه الصلاة والسلام- وقد أمكن حصرها في الجدول كالتالي:

الضمائر الشخصية	218
أسماء الإشارة	لا يوجد
الأسماء الموصولة	ثلاث إحالات

إذن لقد توفّرت في السورة وحدة المتكلم ووحدة المخاطب بل ووحدة القضية التي تعالجها السورة، وهذا كله يساهم في تحقيق ترابط النص.

وقد بدأت الإحالة إليه في مقدمة السورة حيث وجه إليه الخطاب كونه صاحب رسالة سماوية مكلّف بالإنذار والتذكير والتبليغ بما أنزل إليه.

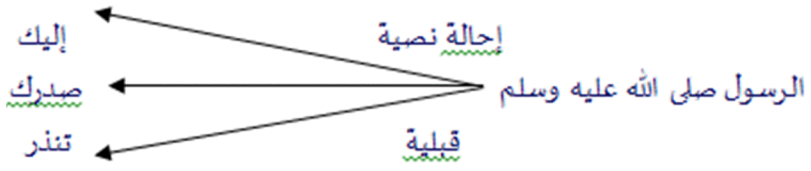

وكما كانت مرجعية الضمائر التي تحيل إلى الله كلها داخلية (نصية)، فإن الضمائر التي تحيل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم جاءت كذلك، ولكنها إحالة بعدية، لأنه ذكر صراحة داخل السورة في الآية (157) في قوله تعالى:

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذي يَجِدونَهُ مَكتوبًا عِندَهُم فِي التَّوراةِ وَالإِنجيلِ يَأمُرُهُم بِالمَعروفِ وَيَنهاهُم عَنِ المُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيهِمُ الخَبائِثَ وَيَضَعُ عَنهُم إِصرَهُم وَالأَغلالَ الَّتي كانَت عَلَيهِم فَالَّذينَ آمَنوا بِهِ وَعَزَّروهُ وَنَصَروهُ وَاتَّبَعُوا النّورَ الَّذي أُنزِلَ مَعَهُ أُولئِكَ هُمُ المُفلِحونَ﴾ الأعراف، الآية 157.

وكأن القصد الذي أعلنته السورة من أول كلماتها هو ملاطفة الرسول- صلى الله عليه وسلم- وتكريمه ومواساته وإذهاب ضيق صدره، بحيث يكون ذلك أشد في ثباته وتثبيته باليقين، وما ينتفي معه كل شائبة شك أو يقين، فيكون التبليغ وبذل الوسع في الإخلاص لأداء الرسالة على عظم يقينه -صلى الله عليه وسلّم-، وكذا تثبيته بعدم الخوف من تكذيب قومه المشركين ما ينتفي معه كلّ تردّد أو تأخّر، ويتحقّق معه الثقة الكاملة بالنصر والمعونة الإلهية.[23]

وكذا وردت الإحالة إليه في سياق ردّه على الكفّار الذين ادّعوا أنّ ما هم عليه من ضلال إنّما هو ممّا جاءت به رسلهم، فكان الرد من الله سبحانه وتعالى من خلال قوله:

﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (28) قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ سورة الأعراف، الآية 28-29

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنْ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (32)قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ (157) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ سورة الأعراف، الآية 157-158.

ووردت هذه الاحالة في مقام عرض نماذج أعرضت عن هدى الله:

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنْ الْغَاوِينَ (175) .... فَاقْصُصْ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ سورة الأعراف، الآية 175-17

وهذه الآية : " فاقصص القصص لعلهم يتفكرون " تشير إلى قوله تعالى في وسط السورة قبل قصة موسى ﴿ تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ سورة الأعراف، الآية: 101، فهي

قصص لتثبيته عليه الصلاة والسلام و تصبيره بسير أنبيائها، وهي لموعظة قومه-صلى الله عليه وسلم- كي يتفكروا في عواقب المكذبين وإهلاك الله لهم .

وهذه الآية " فاقصص القصص " لها ارتباط كذلك بقوله تعالى: ﴿ يا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (35) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ سورة الأعراف، الآية: 36، فالرسل كُلّفوا تبليغ آيات الله و دعوة الناس إليها تذكيرًا لهم بالعهد الأول، لكن عُبِّر عن التبليغ بكلمة " يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي" ؛ لأن فيها معنى تتبع الأثر، أي : يتابعون ذكرها لكم على وجه مقطوع به، ويتبع بعضهم بها أثر بعض، لا يتخالفون في أصل واحد من الأصول [24]، وكأنَّ الرِّسالات كلها قصص تقصُّها الرسل على أقوامها ؛ قصة الخلق، وقصة العهد الأول المأخوذ على العباد وهم في عالم الذر على توحيد الله، وكذلك نبي هذه الأمة محمد-صلى الله عليه وسلم- يقص القصص لكفار قريش لعلهم يتفكرون .

والآية " فاقصص القصص لعلهم يتفكرون " لها علاقة بكل ما ورد في السورة من القصص، بدءًا بقصة آدم وخلقه وقصص الأنبياء، وكذلك قصة العهد الأول ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ .﴾سورة الأعراف، الآية:127.، وقد جاءت هذه الآية ختامًا لقصص بني إسرائيل إلا قصة المنسلخ من الآيات فقد جاءت بعدها، وكأن آية العهد الأول " و إذ أخذ ربك..." تمهيد ومقدمة لهذا النموذج البالغ مبلغًا عظيمًا في النكث والنقض والنكوص، وكأنّه وحده عبرة كاملة، وقصته لها علاقة قوية بقوله تعالى من آيات التوراة التي أنزلت على موسى وهي قوله :

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ سورة الأعراف، الآية: 146.

والصرف الإلهي بتعطيل قواهم العقلية والجسمية عن شهودها والاهتداء إليها، أو عن محاولاتهم لإعاقة تأثيرها ونفاذها" [25]. والمنسلخ من الآيات من الصنف الأول الذين عطلوا قواهم العقلية والجسمية عن شهود الآيات.

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (199) وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ سورة الأعراف، الآية 199-200.

وهي أوصاف تعود على النبي الأمي -صلى الله عليه وسلم- التي جاءت في التوراة وهي قوله:

﴿ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾، وخطابه تعالى لنبيه-صلى الله عليه وسلم- بالرفق واللين والعفو والأمر بالمعروف و الإعراض عن الجاهلين، فلا يكافئهم بخفتهم وسفههم، وهو معنى النهي الذي أشارت إليه الآية الثانية « يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ».

آية : ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(200) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (201) وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ سورة الأعراف، الآية 200..

ومعنى هذه الآيات يشير إلى التحذير من نزغات الشيطان ووساوسه، و تعود إلى قوله تعالى في مقدمة السورة : ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾[26].

فالخطاب المُوجّه إليه صلى الله عليه وسلم لا يخرج عن كونه تكليفًا بالتبليغ أو النذير أو البشير أو ردًا على حجج المشركين أو تسليةً له بإخباره أنّ ما يحدث له قد حدث للرسل من قبل، وهذه كلها أمور مرتبطة بقضية السورة الأساسية، قضية العقيدة التي يكذّب بها المشركون، ويؤمن بها المؤمنون.

إذن حتى مع تغيرّ اتّجاه الضّمائر إلى الرسول عليه الصلاة والسلام، فإنها تصبّ في الاتجاه نفسه الذي تصب فيه الضمائر التي تحيل إلى الله تعالى.

والأمر نفسه سوف نلاحظه في الضمائر التي تحيل إلى المشركين والمؤمنين، إذ كلها تدور حول المشرّع الأوّل ثمّ الرسول -صلى الله عليه وسلم- الذي يتلقّى التّشريع ليبلّغ به الناس كافة فالله يريد لعباده الهداية إلى العبودية له تعالى، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يبلغ هذه الإرادة عن الله، والمؤمنون يصدّقون بما جاء به، والمشركون يكذّبونه، فالكل يدور حول هذه القضية،

فالكل مرتبط بقضية العقيدة، إما بالتكليف أو التبليغ أو التصديق أو التكذيب، ويمكن تمثيل ذلك كالتالي:

القضية الكبرى (العقيدة):

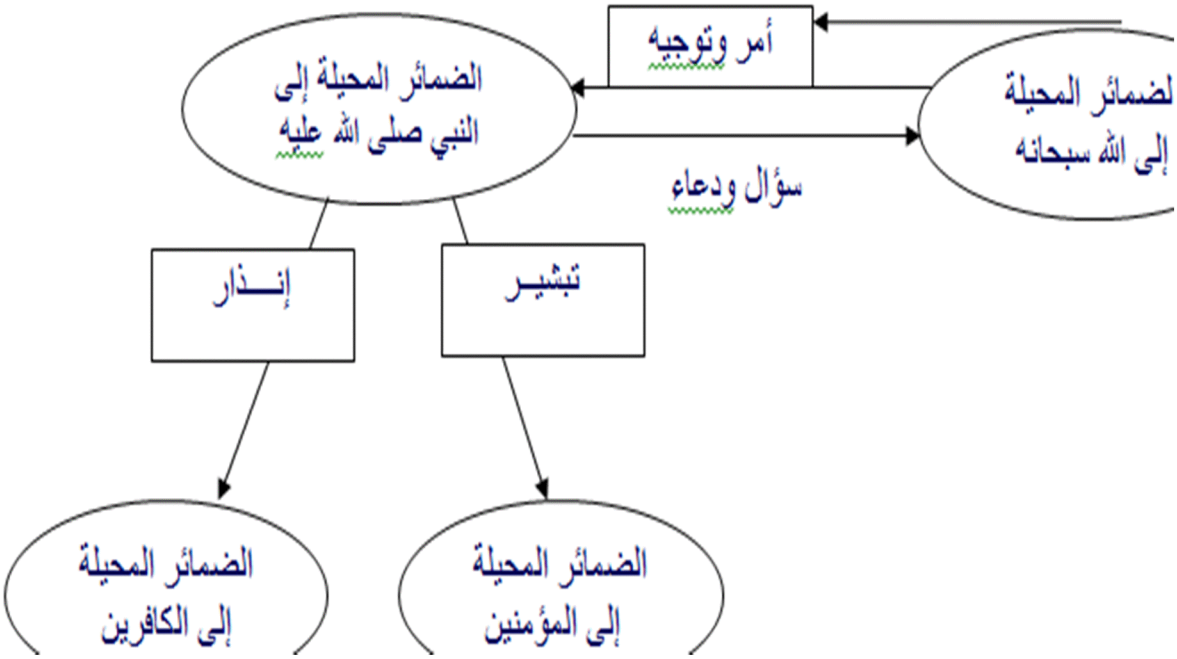

ج-الإحالة إلى المشركين:

أمّا الضمائر التي تحيل إلى المشركين في هذه السورة فإنها تتصّل بالأفعال التي تُوضّح أنّهم كفروا بأنعم الله وجحدوها، وكذبوا الرسل وأشركوا بالله وافتروا عليه الكذب، واستهزؤوا برسول الله وكذبوه وبالرسل من قبله واستحقاقهم بعد ذلك العقاب في الدنيا والآخرة، إذ نجد أن الإحالات الواردة في الآيات الأولى تهديد ووعيد، ثم بعد ذلك تذكير بنعم الله علّهم يفيئون لأمره ثم بيان لما يجب أن يكون عليهم حالهم من التوحيد والإيمان بدلا من الكفر والعصيان.

ويرجع صبحي إبراهيم الفقي كثرة هذه الإحالات إلى المشركين إلى السياق التاريخي لدعوة الإسلام إذ يقول: "و هذا أمر طبيعي؛ فالله واحد لا شريك له، و الرسل كلهم دعوة واحدة، والمؤمنون كلهم طائفة واحدة، لكن المشركين ملل و طوائف كثيرة...و ما فعلوه من تكذيب وسخرية واستهزاء وإعراض وكفر، هذا كله يحتاج إلى رد كثير على افتراءاتهم المتعددة، ومن تم كانت الضمائر أكثر"[27] وهي كالآتي:

الضمائر الشخصية	400 ضميرا
أسماء الإشارة	14 إحالة إشارية
الأسماء الموصولة	26 إحالة موصولية

فالمواجهة بل المواجهات كثيرة وصعبة، وسبل الإقناع ينبغي أن تكون لذلك كثيرة من تعريف بحقيقة الألوهية التي تشمل الهيمنة على الوجود كله، ومن تعريف بمواقف المكذبين على مرّ العصور، ومصارعهم، وتعريفهم بموقفهم يوم القيامة، ويوم الحشر، و أنهم الخاسرون.

ومن بين الآيات التي حملت ضمائر تعود إلى المشركين قوله تعالى:

﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ.﴾ سورة الأعراف، الآية 77.

إنه التبجّح الذي يصاحب المعصية، و يعبر عن عصيانهم بقوله" عتوا" لإبراز سمة التبجّح فيها وليصوِّر الشّعور النفسي المصاحب لها، و الذي يعبّر عنه كذلك ذلك التّحدي باستعجال العذاب، والاستهتار بالنذير، و لا يتأنّى السياق في إعلان الخاتمة، ولا يفصّل كذلك:

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ.﴾ سورة الأعراف، الآية 78.

ويدعهم السياق على هيئتهم ليرسم لنا مشهد صالح الذي كذبوه و تحدَّوه: ﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ .﴾ سورة الأعراف، الآية 79.

إنه الإشهاد على أمانة التبليغ والنصح و البراءة من المصير الذي جلبوه لأنفسهم بالعتوّ و التّكذيب. فالمواجهات لم تكن مع المشركين بالرسالة المحمّدية فحسب بل مع مشركي العصور السالفة كذلك، وضمنيا مع مشركي العصور القادمة إلى أن يرث الله الأرض و ما عليها.

و هذه الإحالات كلها بصفة عامة قبلية؛ لأن الذين كفروا ذُكروا في المقدمة مفتاح السورة إذ قال تعالى: ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ.﴾ سورة الأعراف، الآية 09.

لكن بالنسبة للآيات التي بها موصولات نجد أن الإحالة سابقة و لاحقة فمثلا قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ سورة الأعراف، الآية 36.

ومن الملاحظ في السورة أن الضمائر المحيلة إلى الكافرين تكاد تتوزع على الآيات كلها؛ إذ وصل عدد الضمائر التي تحيل إلى الكافرين في المقطع المخصص لقصص الأنبياء مع أقوامهم (111) إحالة ضميرية، وهذه الضمائر حققت التماسك الداخلي للآيات التي تتصل بمحور السورة وهي قضية مصير المكذبين برسالة التوحيد.

وكذلك نجد الإحالة الخارجية التي يستعين المتلقي في تحديد المحال إليه فيها على خبراته "إذ أنه لا يمكن الاستغناء في تلقي القرآن عن مناسبة النزول لتحديد المحال إليه، فلولا إدراكه لهذه المناسبات لما استطاع معرفة مرجعية الضمير، ومن تم تغيب كثير من المعالم الدلالية وقد ينقص من تماسكها نظرا لعدم وضوح مرجعية الضمائر بها"[28]، ومن الآيات التي وردت بها إحالة خارجية (مقامية) قوله تعالى:

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ سورة الأعراف، الآية 28.

إذ يذهب علماء التفسير أن المقصود بهذا الخطاب هم مشركي مكة الذين كانوا يزاولون فاحشة التعري في الطواف ببيت الله الحرام، ثم يزعمون أن الله أمرهم بها، ويحرمون على أنفسهم في موسم الحج أكل الدسم و اللحم، لذا واجههم الله تبارك و تعالى باللوم على الافتراء عليه بما لم يأمر به، وبين لهم ما حرمه عليهم حقا[29]بقوله تعالى:

﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ.﴾سورة الأعراف، الآية 29.

ومن أمثلته قوله تعالى:

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ .﴾ سورة الأعراف، الآية 146.

فقد ربط (ذا) بين دلالة الآيتين؛ بين تكذيب أولئك المتكبرين عن شرع الله و جنوحهم سبيل الغيّ وبين استحقاقهم ذلك الجزاء المُرْدي المؤدّي إلى الهلاك في الدنيا و الآخرة ألا و هو صرفهم عن آياته فلا ينتفعون بها و لا يستجيبون لها.[30]

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ .﴾ سورة الأعراف، الآية 40.

في هذا النموذج نجد أنّ اسم الإشارة " كذلك" يحيل إلى الجزاء الذي سيلاقيه المكذبون بآيات الله؛ وهو حرمانهم من دخول الجنة بل و استحالة ذلك كاستحالة دخول الجمل في ثقب الإبرة؛ "إذ لمّا علّق الله دخولهم الجنة بولوج الجمل في سمّ الخياط كان ذلك نفيا لدخولهم الجنة على التأبيد"[31].

والدلالة في هاتين الآيتين عامة، بسبب الاسم الموصول "الذين" فصارت تنطبق على كل من تحقق بهذا الوصف؛ التكذيب بالآيات والاستكبار عنها، والثاني من اتّخذ دينه لهوا ولعبا وغرته الحياة الدنيا، وهما دلالتان عامتان تنطبق على كلّ من ذكر في السورة من غير المؤمنين،

آية : **﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (175) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ سورة الأعراف، الآية 176.**

هذا المثل هو آخر القصص التي عرضتها السورة، وإن كانت آيته هي الوحيدة التي مثّلت لنا حالة صاحبها كالكلب اللاهث المتّصل اللهث دون انقطاع وإن جاءه الماء، وكأن هذه الصورة في خاتمة القصص من خلال اسم الإشارة " ذلك" أحالت إلى جميع المعرضين عن الحق من أصحاب القصص بعدما عرفوه سواء لمن عرف و أعرض أصلاً كالكافرين، ومن عرف ثم انسلخ بعد تلبس بإيمان كالمرتدين . وهي لها ارتباط كذلك بالآية قبل القصص **﴿وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ﴾ سورة الأعراف، الآية 58،** لأن قلب المنسلخ لم يتشرّب الإيمان إلا تشربًّا نكدا، فأرضه خبيثة والنفع فيها غير مُتحقق له ولذا جاء التعقيب بعدها : " فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ "، وليست قصة المنسلخ وحدها بل كل القصص *في السورة، لعل كفار قريش يقفون عندها يتفكرون في صدق النبي محمد-صلى الله عليه وسلم-وهي بهذا إحالة قبلية.

وآية﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ سورة الأعراف، الآية 178، ترتبط كذلك بما ذكر بعدها من قوله-عز وجل-في خطاب كفار قريش : ﴿ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ سورة الأعراف، الآية 186.، وهذه الآية في نفي هداية من أضله الله "فهو يستمر على ضلاله "[32]، وأكده بقوله : " ويذرهم في طغيانهم يعمهون "، أي:" يتحيّرون ويتردّدون في الضّلال لا يعرفون طريقًا ولا يفهمون حجة . "[33]، وهذه الآية في تهديد كفار قريش ليعتبروا بكل أهل الضلالة الذين هلكوا من أهل قصص السورة ليحذروا أن يكونوا منهم.

ولعل هذا ما يوضّح كثرة الضمائر المحيلة إلى الكافرين لأجل بيان كفرهم و جحودهم و استهزاءهم برسل الله و إعراضهم عنهم و كل هذا احتاج إلى رد كثير على افتراءاتهم.

د-الإحالة إلى المؤمنين:

أما العنصر الرابع من العناصر التي يحيل إليها النص؛ فهو عنصر المؤمنين، وقد بلغت مواضع ذكرهم 180 موضعا، وقد ذكرنا السبب فيما سبق كون المؤمنين طائفة واحدة مؤمنة لم تعترض حكم الله ولم تجادل فيه، ولم تصنع لنفسها تشريعا خاصا بهم، ويتطابق هذا مع مناسبة نزول السورة المتمثل في توبيخ المشركين على ما فعلوه من تكذيب.

وأول ذكر صريح للمؤمنين كان في الآية الثانية:

﴿ كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ .﴾سورة الأعراف، الآية 02.

إنّ ما سبق الإشارة إليه يرتبط-في الغالب- بدور الضمائر الشخصية، حيث لوحظ أنها تربط بين كلمات الآية الواحدة و بين آيات السورة، وبين النص و السياق الخارجي المحيط به.

ينطبق على أسماء الإشارة ما قيل عن الضمائر من "إحالتها إلى عنصر متقدم، أو أن تكون إحالتها إلى خطاب بأكمله"[34]، فإنها قامت بالدور نفسه الذي قامت به الضمائر الشخصية؛ إذ نجد أن اسم الإشارة (ذلك) تعدى الربط بين أجزاء الجملة الواحدة إلى الربط بين أكثر من جملة.

قال تعالى: فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون" الفاء في الآية للجزاء والتقسيم، فجزاؤهم مرتب على ثقل موازينهم، والإشارة إليهم ب: أولئك لعلو درجاتهم ورتبهم في الجنان، وقدم ضمير الفصل للقصر والتخصيص للدلالة على أنّهم هم المتحقّقون بحقيقة الفلاح.

خاتمة:

تبيّن من الدراسة مساهمة آلية الإحالة الضميرية في إيجاد نوع من الاتساق بين الوحدات المكوِّنة للسورة وكذا في كشف العلاقات الحجاجية بين آياتها المتتابعة على المستوى الدلالي؛ ذلك أن الترابط بين أبنية النص أساسه التداخل والتشابك بين الربط النحوي والانسجام الدلالي، حيث كشف البناء النصي لسورة الأعراف عن تنوُّع الحجج وكذا أشكالها اللغوية، فكان حضور الإحالات الضميرية القبلية متواترا في السورة بكثرة، والتي أحالت إلى ذات الله-سبحانه وتعالى-وإلى الرسول-صلى الله عليه وسلم-وكذا إلى المؤمنين، والكافرين، باعتبار أنّ السورة انبنت على قضايا العقيدة، والتي على رأسها الدعوة إلى توحيد الله وإفرادِه بالعبودية، لتثبيت النبي والمؤمنين، بعد ترسيخ التوحيد وتشريع الأحكام، وتبيين السنن والآداب في السور السابقات، فيكون الثبات على الحق بعد معرفته باتباع ما أنزل الله هو مضمون السورة الذي دلّ عليه اسمها "الأعراف" لأنهم عرفوا الحق وما ثبتوا عليه فكان جزاؤهم الوقوف على سور الأعراف.

الإحالات:

[1] يُنظر: مصطفى حميدة، نظام الارتباط والربط في تركيب الجملة العربية، الشركة المصرية العالمية، القاهرة، 1997، ص195

[2]- ينظر: نعمان بوقرة، المصطلحات الأساسية فى لسانيات النص وتحليل الخطاب، ، عالم الكتب الحديث ط عمان الأردن 2009، ص11.

[3]-روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، تز: تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، 1998، ص172.

[4]- محمد خطابي، لسانيات النص، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، 1999، ص17.

[5]- -المرجع السابق، ص 17

[6]- أحمد عفيفي، الإحالة في نحو النص، ص 532.

[7]- الأزهر الزناد، ا نسيج النص، ص115-116.

[8]-ابن منظور، لسان العرب، مادة (ح ج ج)، دار صادر بيروت، لبنان، 1997، ص 28

[9]-طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1998، ص226.

[10] *-Ch. Perlman et Lucie Olbrechts-Tyteca, Traité de L' argumentation, Editions de l' université de Bruxelles, Belgique, 6 édition,2008, p59.*

[11]-الحبيب أعراب، الحجاج والاستدلال الحجاجي، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، مج30، ع سبتمبر 2001، ص 99.

[12]-أمينة الدهري، الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة، شركة النشر والتوزيع، ط1 2011 الدار البيضاء، ص07.

[13]-علي الشبعان، الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل، دار الكتاب الجديد، ط1، 2010، بيروت، ص 126.

[14]- سيد قطب، في ضلال القرآن،، دار الشروق، ط 11، 1985، مجلد 03،، ص1244.

[15]- سورة الأعراف، الآية 03.

[16]- ينظر: سعيد حوى، الأساس في التفسير، دار السلام، الطبعة الخامسة، 1999، القاهرة، ، ص 1870.

[17]- سورة الأعراف، الآية 57.

[18]-نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للبقاعي برهان الدين أبي الحسن، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى1995، لبنان، ج 3 ص44

[19] - ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير و التنوير، ادار التونسية للنشر، ص: 23

[20]-البقاعي، نظم الدرر، ج 3، ص 10.

[21]- ينظر نظم الدرر ج 3 ص10.

[22]- ينظر: صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، دار قباء، القاهرة، ط1، 2000، ج1، ص 185.

[23]-عواطف حمزة خياط، بناء المعاني وعلاقاتها في سورة الأعراف، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه، إشراف د. محمد محمد أبو موسى، جامعة أم القرى، السعودية.

[24] -لبقاعي، نظم الدرر، ج 3 ص 30.

[25]- ينظر نظم الدرر ج 3 ص 112.

[26] -البقاعي، نظم الدر، ج3 ص 176.

[27]- صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي، ص: 189.

[28]-صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي، ص: 196.

[29]- سيد قطب، في ضلال القرآن، ج8، ص: 1280.

[30] - ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، ص: 1370.

[31] - القنوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن، ج4، مراجعة: عبد الله بن إبراهيم الأنصاري المكتبة العصرية للطباعة و النشر، ط2، 1995، صيدا، بيروت، ص: 339.

[32] - البقاعي، نظم الدرر، ا ج 3 ص 165.

[33] - البقاعي، نظم الدرر، ، ج 3 ص 165.

[34]- محمد خطابي، لسانيات النص، ص: 177.